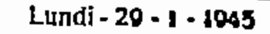
13 me Année No. 604


Lundi - 29 - 1 - 1945

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة

٨٠ في مصر والسودان
١٥٠ في سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ١٥ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٦٠٤ « القاهرة في يوم الإثنين ١٥ صفر سنة ١٣٦٤ — الموافق ٢٩ يناير سنة ١٩٤٥ » السنة الثالثة عشرة

الفهـــرس

أبو العـــلاء المعري (*)

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

— ١ —

كان النبيُّ محمد، وكان هذا القرآن، هذا الكتاب المعجز، فكانت تلك الدنيا العجيبة العربية، وكان مع الهدى والخير ذلك العلم وذلك الأدب وتلك الفنون، وكان أولئك الأئمة وأولئك النابغون وأولئك العبقريون، وكانت تلك المؤلفات الفائقات المحققات، وكان أولئك المؤلفون الراسخون في العلم المستبحرون. وكان هذا العبقريُّ أبو العلاء المعري (احمد بن عبد الله بن سليمان) رب هذا المهرجان.

كانت الحضارة العربية، وكانت هذه المدنية الغربية، ولن يقدر أن يكفر إفضال المفضلين كافرون. فمحمد والقرآن هما شائدا هذا المجد، وهما القائدان، وهما الماديان، وهما الشمسان الباهرتان، ذواتا الضياء السرمديّ في العالمين . .

« كما أرسلنا فيكم رسولا يتلو عليكم آياتنا، ويُزكيكم، ويعلمكم الكتاب والحكمة، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ـ فاذكروني أذكركم، واشكروا لي ولا تكفرون » .

* * *

(*) الخطبة التي ألقاها الأستاذ في مهرجان أبي العلاء الذي اقيم بدمشق في شهر سبتمبر الماضي .

٢٤٠٧

« دمشق عروس الشام الموموقة ، وواسطة عقدها الموموقة » .

فى دمشق هذه التى قلت فيها ــ يا أبا العلاء ــ قولك هذا فى رسالتك إلى (أبى منصور محمد) قد مهرج العربيون لك اليوم هذا المهرجان بعد ألف سنة من سعادتك بكونك وسعادة العربية بك . وإن أمة أقامت من بعدك هذا الدهر الأطول تصارع الكروب والخطوب ، وتقارع تلك الهمجيات الشرقية والوحشيات الغربية ثم لم تبيد بل لم تهن ولم تستكن ، إن أمة وقاها كتابها ووقت لغتها ولسان كتابها ؛ وعرفت قدرها فى الادوار ، وفضلها من قبل ، ومسعاها اليوم ، وأرادت ألا تزول وأن تكون فكانت ، إن هذه الأمة لقوية وعزيزة وسائدة وخالدة فى الخالدين .

* * *

بلاد الشام جلها ، ولا أقول كلها ، و « إن مع اليوم غدا يا مسعدة[1] » لا تردد كثيراً فى الوقت قول الشيخ :

ألفنا بلاد الشام إلف ولادة نلاق بها سود الخطوب وحمرها
فطورا نداري من سبيعة ليثها وحينا نصادى من ربيعة نمرها

فالحال اليوم ــ يا أبا العلاء ــ متهادن ، والدهر مهادن . وفى الدارمين قبيلك صالحون وصادقون ومخلصون و « ما الخلاص إلا فى الاخلاص » كما يقول ابو منصور الثعالبي[2] ورئيس القوم[3] ملآن من الفضائل الاسلامية ومن العربية والوطنية ، وهو كما أردت وكما أحببت وكما قلت :

إذا ما تبينا الأمور تكشفت لنا وأمير القوم للقوم خادم

لا يتركن قليل الخير يفعله
من نال فى الأرض تأييداً وتمكينا

وقد أتى بكثير الخير وأكثره . ومهرجانك هذا هو حسنة من حسناته .

* * *

(١) من أمثالهم ، قال الميدانى : يضرب مثلا فى تنقل الدول على مر الأيام وكرها

(٢) فى كتابه (المبهج) ورواه فى كتابه (الايجاز والاعجاز)

(٣) صاحب الفخامة السيد شكرى القوتلى رئيس الجمهورية السورية

كونت العربية فى اللغات تكوين الألماس[1] والراديوم فى المعدنيات .

« صنع الله الذى أتقن كل شىء »

ولله أن يفضل لساناً على لسان ، وأن يحظى إنساناً على إنسان[2]

« ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات »

والشيخ يقول فى « الفصول والغايات » : « وربك خص بالفضيلة من اختار » وإذا قال العبقرى ابن جنى : « إننى إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحكمة والدقة والإرهاف والرقة ما علك على جانب الفكر ، حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر » فما غالى عما قال ولا بالغ بل كان من المقتصدين . وهذا شيخ المربانيين العلامة الكبير (نَلّينو) الذى حذق لغات متقدمين ومتأخرين من الغربيين والشرقيين يعالن فى خطبة غير متسمح فى الكلام ولا مصاد بأن « العربية تفوق سائر اللغات رونقا وغنى ، ويعجز اللسان عن وصف محاسنها »

« ولو أبصروا ليلى أقروا بحسنها
وقالوا بأنى فى الثناء مقصر »

فـ « لغة العرب أفصح اللغات ، وبلاغتها أتم البلاغات[3] »

ولو مثلت لغة غادة لأنشد المنشدون :

فدقت وجلت واسبكرت وأكملت
فلو جن إنسان من الحسن جنت[4]

* * *

فتنت هذه العربية «أبا العلاء» فتونا ، وسحرته فنونها ، فأقبل رجلا مسحورا . شغف بكتابها «قرآنها» ذاك الشغف ، وكلف بقريضها أى كلف ، وهام بألفاظها هيامه بأقوالها .

(١) هو الالماس ، والهمزة واللام فيه أصليتان ، ولم يصب المجد فى قوله : « ولا تقل ألماس فانه من لحن العامة » وقد وجدت الالماس فى (الفائق) ج ١ ص ٣٢٤ وفى (النهاية)

(٢) أحظيت : الانا على فلان من الحظوة والتفضيل (المخصص)

(٣) الزمخشرى

(٤) الشنفرى الأزدى فى مفضليته (اسبكرت) طالت وامتدت والمعنى ــ كما يقول الانبارى شارح المفضليات ــ : دقت فى حينها ، وجلت فى خلقها .

« إن هذا الـكتاب الذى جاء به محمد كتاب بهر بالاعجاز . ما حُذى على مثال ، ولا أشبه غريب الأمثال . . جاء كالشمس اللائحة . . لو فهمه الهضب الراكد لتصدع[1] [وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون] وإن الآية منه أو بعض الآية ليعترض أفصح كلام يقدر عليه المخلوقون فيكون فيه كالشهاب المتلألىء فى جنح غسق [فتبارك الله أحسن الخالقين[2]] » .

« أجدنى ركيكا فى الدين ركاكة أشعار المولدين[3] » .

(١) الـكتاب يقول : لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ..

(٢) ابو العلاء فى (رسالة الغفران) .

(٣) أبو العلاء فى (الفصول والغايات) .

سئل أبو عمرو بن العلاء — كما روى ابن رشيق فى العمدة — عن المولدين فقال : ما كان من حسن فقد سبقوا اليه ، وما كان من قبيح فهو من عندهم . ليس النمط واحدا ، ترى قطعة ديباج وقطعة مسح (ثوب من الشعر غليظ) وقطعة نطع (بساط من الادم : الجلد)

وروى غير صاحب العمدة لابن الأعرابى هذا القول :

إنما أشعار هؤلاء المحدثين مثل الريحان يشم يوما و يذوى فيرمى به ، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيبا

وللقاضى الجرجانى فى الوساطة بين المتنبى وخصومه ولابن الاثير فى (المثل السائر فى أدب الـكاتب والشاعر) قولان أرويهما وان خالفا مقالة الشيخ

قال الأول : ان الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ، ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل واحد من أسبابه ، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز ، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الاحسان ، ولست أفضل فى هذه القضية بين القديم والمحدث والجاهلى والمخضرم والاعرابى والمولد ، إلا أنى أرى حاجة المحدث إلى الرواية أمس وأجده إلى كثرة الحفظ أفقر

وقال الثانى :

لقد وقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع ، وانفدت شطرا من العمر فى المحفوظ منه والمسموع ، فألفيته بحراً لا يوقف على ساحله ، وكيف ينتهى الى إحصاء قول لم تحص أسماء قائليه . فعند ذلك اقتصرت منه على ما تكثر فوائده ، وتتشعب مقاصده . ولم اكن ممن أخذ بالتقليد والتسليم فى اتباع من قصر نظره على الشعر القديم إذ المراد من الشعر انما هو ايداع المعنى الشريف فى اللفظ الجزل واللطيف ، فمتى وجد ذلك (فكل مكان خيمت فيه — بابل)

(قلت) : قوله (فكل مكان الخ) هو عجز بيت للأبيوردى فى مقطوعة رواها ياقوت فى أثناء خبر من أخبار الشاعر ولا يتضح ما اقتبسه ابن الاثير الا بإيراد المقطوعة بتمامها وهى :

أبابل ، لا واديك بالخير مفعم ... لراج ، ولا ناديك بالرفد آهل

إذا ضقت عنى فالبلاد فسيحة ... وحسبك عارا أننى عنك راحل

وإن كنت بالسحر الحرام مدلة ... فعندى من السحر الحلال دلائل

قوافٍ تعير الأعين النجل سحرها ... وكل مكان خيمت فيه — بابل

ومن علق بأقوال العرب الأقدمين من الجاهليين أو المخضرمين أو الاسلاميين استنزل كلام المحدثين ، وقضى قضاء أبى العلاء . وللكلام العربى القديم سلطان قاهر إذا استمكن من نفس خليطه سحره عما سواه ، فلا يتقبل إلا إياه . ولولا أن عبقرية أبى تمام وعبقرية المتنبى جهرتا الشيخ وبهرتاه ما كان فخّم حبيبا فى « رسالة الغفران » ذاك التفخيم مشيراً إلى مُقصّدات له فائقات ثم قال : « إنى لأضن بتلك الأوصال ، أن يظل جسدها وهو بالموقدة صال ؛ لأنه كان صاحب طريقة مبتدعة ، ومعان كاللؤلؤ متتبعة ، يستخرجها من غامض بحار ، ويفض عنها المستغلق من المحار[1] » وما كان افتتن بأبى الطيب تلك الفتنة[2] . وسبك حبيب ـ وإن كان محدثا ـ عجيب . ولغته قد شارعت أو قاربت فى القوة قديمة مطبوعة .

* * *

ذكر صاحب (الغيث المسجم فى شرح لامية العجم) جماعة من « الذين رزقوا السعادة فى أشياء لم يأت بعدهم من نالها »

(١) المحار جمع المحارة : الصدفة .

(٢) فى مقالتى (أخبار أبى تمام للصولى) فى الرسالة ٢٢٠ السنة ٦ وفى مقالتى (ابو تمام والمقتطف) الرسالة ٢٢٥ السنة (٦) بينت شيئا من فضل أبى تمام فى الشعر ، ورويت أقوالا لأئمة فيه ، ومما لم أورده فى تينك المقالتين هذه الأقوال :

كان يقال : أربعة لم يسبقوا ولم يلحقوا : أبو حنيفة فى فقهه ، والخليل فى نحوه ، والجاحظ فى تأليفه ، وأبو تمام فى شعره

فى (الموشح) :

نظر يعقوب الـكندى فى شعر أبى تمام فقال : هذا رجل يموت قبل حينه لأنه حمل على كيانه بالفكر ، ويقال : إن أبا تمام مات لنيف وثلاثين سنة

وفيه :

محمد بن أبى كامل قال : شهدت أبا تمام الطائى فى منزل الحسين بن الضحاك وهو ينشد شعره فقال له اسحاق يافتى ، ما أشد ما تتكىء على نفسك ، يعنى أنه لا يسلك مسلك الشعراء قبله وانما يستقى من نفسه

قال أبو بكر الصولى فى كتابه (أخبار أبى تمام) :

حدثنى ابو الحسن الكاتب قال : كان ابراهيم البندنيجى يجيئنا كثيراً ، وكان اعلم الناس بالشعر ، ويجيئنا البحترى وعلى بن العباس الرومى ، وكانوا اذا ذكروا أبا تمام عظموه ورفعوا مقداره فى الشعر حتى يقدموه على اكثر الشعراء ، وكل يقر باستاذيته وانه منه تعلم ، وهؤلاء أعلم زمانهم بالشعر ، وأشعر من لقى

(٣) كان ابو العلاء — كما رووا — اذا ذكر الشعراء يقول : قال أبو نؤاس كذا ، قال البحترى كذا ، قال ابو تمام كذا ؛ فاذا أراد المتنبى قال : قال الشاعر كذا تعظيما له

من عباد دمشق :

نحن والتجار ...

الأستاذ علي الطنطاوي

أكتب هذه الكلمة والمطر يهطل منذ ثلاث ليال ، ما انقطع خيطه ، ولا سكت صوته ، أقبل بعد سنة مضت ، شحت فيها السماء ، وضنت السحب ، ففرح به الناس واستبشروا ، وانتظروا عاماً خيّراً مباركاً ، يغاث فيه الناس ، ويأتيهم الفرج بعد الشدة ؛ غير أن الخير إن زاد عن حده ، كاد ينقلب إلى ضده ، وكذلك المطر لما استمر صار الناس يسألون الله الجفاف ، ويتمنون لو تطلع الشمس ، والشمس ما تطلع ، والمطر ما ينقطع ...

ووكفت السقوف ، ونزّت الجدران ، واسّاقطت غرف ، وسالت طرق الجبل أودية ، فامتلأت بالحصى والحجارة ، وغدت أباطح ، ووقف سيلها الدفّاع السيارات وحافلات الترام ، واختبأ الناس في البيوت ، وما تكاد البيوت تمنع برداً ولا بللاً ، ونال حيّ المهاجرين (على سفح جبل قاسيون) مالم ينل مثله حياً في في دمشق ، وحي المهاجرين نصفه قصور من الصخر شامخات ، ذات طبقات كثر وشرفات ، ونصفه دور لمساكين ، هي أكواخ من اللبن والطين ، وما في بلدنا مكان يلتقي فيه الفقر المدقع المتجمل الصابر ، والغنى السفيه الوقح المبذر ، كما يلتقيان وجهاً لوجه في المهاجرين . أما بيوت الأغنياء فما أحست المطر ولا درت به ، ونام من فيها على فخم الأسرة ووثير الفرش ، لا يعنيهم من خبر السماء وخبر الأرض إلا أن تشبع بطونهم ، وتمتلىء صناديقهم ، ويسلم لهم أولادهم وأهلوهم ، وأما أكواخ الفقراء ، فقد صبرت على المطر صبر الكريم ، واحتملت ليلة وليلتين . فلما جاوز الحمل الطاقة ، خرت في المعركة ، كما يخر البطل الشهيد ، وخرج من بقي من ساكنيها فراراً منها حين لم تعد دوراً وإنما صارت بركاً ومستنقعات ...

سقوف بيوتي صرن أرضاً أدوسها

وحيطان داري ركّع وسجود

وسمعت في الليل هزّة ، اهتزت لها الدور ، ورجفت منها القلوب ، فقمت أستقرى الخبر ، فاذا دار جيراننا قد هوت ...

... ومضت ساعة ، وأهل الحمية من الناس يعملون في الوحل والمطر والبرد ، ليواسوا أسرة نزل بها القضاء ، وينقذوا ما يستطيعون إنقاذه ، من فرشها ومواعينها ، وذلك القصر ينظر الينا ثم يعرض عنا ، قد شغلته حفلة أقامها تلك الليلة لا أدري فيم أقامها ، ولا تزال أنواره ساطعة في عيوننا ، ونساؤه الكاشفات يتراءين لنا من وراء الزجاج في الحرير والذهب ، وأصوات الغناء والمرح في آذاننا ، تهزأ بالفقر وأهله ، وتضحك وقحة في مآتمهم ، وترقص فاجرة في مقابرهم ، والسيارات تقف في بابه تنزل منها باقات الزهر ، وثمن كل باقة يحيي الأسرة من هذه الأسر أياما ، والهدايا التي تذهب بالمال ولا تأتي بالنفع لوحات مصورة ، وكؤوس منقوشة مذهبة ، وتماثيل للناس وللبهائم ، لو وزعت أثمانها على فقراء الحي لم تدع فيه فقراء ، والفضيلة قد توارت خجلاً في زاوية الطريق ، وابليس واقف يضحك مسروراً بأن سلب نفراً من أمة محمد فضائل دينها ، ومروءتها ، وأن ثأر من آدم فجرد بعض بنيه من بشريتهم ، وأحالهم شياطين في أجسام بشر ، أو ذئابا قد استخفت في الثياب ... ولم أقل كلابا لئلا أشتم الكلاب !

فلما جاء إلى الشيخ قال : «أبو العلاء المعري في الاطلاع على اللغة» .

يقول الامام الشافعي في (رسالته في أصول الفقه) :

« لسان العرب أوسع الألسنة مذهبا ، وأكثرها ألفاظا ، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي » .

ولو أحاط إنسان غير نبي بجميع هذا العلم لكان الشيخ أبا العلاء ، وإن لم يحط به كله فقد أحاط - كما يخال - بجله . وتلميذه أبو زكريا التبريزي يقول كما ذكر ابن العديم في كتابه (الانصاف والتحري) : « ما أعرف أن العرب نطقت بكلمة لم يعرفها المعري[1] » .

(١) في (أوج التحري) هذا القول وهو منسوب الى الشيخ في حديث له : « ... والله ما أقول إلا ماقالته العرب ، وما أظن انها نطقت بشيء ولم أعرفه »

ونعجب بعد هذا من ابراهيم بن أدهم لما أخرجوه ليستسقي لهم، وقالوا له قد استبطأنا المطر، فادع الله لنا، فقال: تستبطئون المطر؟ أنا والله استبطىء الحجارة ...

« ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى »

* * *

وما هذا القصر لملك ولا أمير، ولكنه لتاجر من هؤلاء التجار الذين يحيون في أيام الحروب التي يموت فيها الناس، ويغنون حين يفتقرون، وينسون أن لهذا الكون إلهاً قادراً عادلاً جباراً، ما استقال ولا أحيل على المعاش، ولا يزال لهم بالمرصاد، وينسون أن الموت آت لامفر لهم منه، وأن قبل الموت المصائب والرزايا: الفقر والثكل والمرض؛ وأن بعد الموت الحساب، وبعد الحساب جهنم أو الجنة، أفبلغ بالتجار أن يعلنوا الحرب على الله؟

إننا نعيش بحمد الله في منجاة من القتال وأهواله، والحرب وبلاياها، ومالنا عدو يحاربنا، وما عدونا الا هؤلاء المحتكرون أعداء الله وأعداء البشر، الذين حبسوا أقواتنا، وأخفوا أرزاقنا، وارتصدوا لنا أن نجوع ونعرى، ليكنزوا الذهب والفضة ويطيفوا بها إطافة الوثني بصنمه، وليريقوا فيض مالهم على أرجل بنات إبليس: الأرتستات الراقصات، وفي معابد الشهوة المَلْـهَيات ونوادي القمار، وفي كؤوس الجحيم التي اسمها الشمبانيا والويسكي، يحاورون ماذا يشترون بمالهم من اللذاذات المحرمة، وفي أي مطرح من مطارح التبذير يلقونه، والموظفون والعمال لا يكادون يجدون ثمن الغذاء والكساء، إلا موظفاً خان أو عاملا سرق، فما حال الأرملة المفردة، واليتيم الضائع، والشيخ الذي لاسناد له من مال أو ولد، وعندنا في دمشق من الأرزاق والبضائع ما لو أخرج لكفانا الحاجة سنين أخرى، بل إن عندنا كما أكد لي من يوثق به، بضائع لاتزال في مخازنها منذ الحرب الماضية، والناس محتاجون اليها والتجار يخفونها ويتقبون بها يوماً أشد، وساعة أحكم، لايدرون أن كل من أخفى بضاعة أو حبسها ينتظر بها ارتفاع الأسعار، وحرمها من هو في حاجة اليها فهو محتكر قل ما حبسه أو كثر، وهو عدو مؤذ، ولص سارق، وليس بتاجر، لأن التجارة كما يفهمها عقلي القاصر إنما تكون بنقل البضاعة من بلد تكثر فيه إلى بلد هي فيه قليلة، أو بجمعها في موسمها لبيعها في غير موسمها، أو بشرائها جملة وبيعها أفراداً، ويأخذ التاجر الربح المعقول على مابذل في ذلك من ماله ومن عمله، أما مانراه اليوم من اجتماع النفر من التجار حول مائدة من الرخام في (قهوة الكمال) مثلا، وفي أيديهم أقلامهم وفي أفواههم دخائنهم أو أنابيب نراجيلهم، يبيع أحدهم (بالة الخام) أو (كيس السكر) عشرين مرة بأسعار مختلفة، ويشتريها، وما باع على التحقيق ولا اشترى، ولا قام من مكانه ولا أخذ ولا أعطى. ثم ينفض الاجتماع وباقي الستار على من ربح منهم عشرة آلاف ليرة، أو من خسر مثلها ... أما هذا وأشباهه — وما أكثر أشباهه — فما هو لعمر الحق الا القمار بعينه وأنفه وذنبه ...

وإذا كان حقاً ما اعتمده (رينان)، من أن الدولة تقوم على (الإرادة المشتركة)، لا على الأرض وحدها ولا اللغة منفردة، إلى آخر ما في « نظريته » المعروفة، فليس التجار منا ولا نحن من التجار، لأنهم يريدون غير ما نريد، ولا إرادة مشتركة بيننا وبينهم، فنحن نرجو الرخص وهم يتمنون الغلاء، ونحن نحب أن تنتهي الحرب وهم يحبون أن تدوم، ونحن نطالب من الحكومة أن تسعّر وتراقب، وهم يطلبون لأنفسهم حرية إجاعتنا وتعريتنا، ونحن لا نجد مالاً نشتري به لوازمنا، وهم لا يجدون لذة جديدة يصرفون فيها أموالهم، فأي جامعة بيننا وبينهم؟

* * *

وإذا كانت الرسالة قد جردت قبل الحرب[1] قلمها البليغ، لنصرة أكرم مبدأ، مبدأ الإحسان، والدفاع عن الفقراء والمحتاجين، وإثارة الحمية في نفوس الأغنياء القادرين، ذلك والدنيا في رخاء، والحياة سهلة، والسلام قائم، فأولى أن تستل هذا القلم العضب اليوم، حين اشتد الخطب، واتسعت بين الفريقين

(١) في النصف الأول من سنة ١٩٣٩

الشقة ، وازداد الأغنياء غنى ، والفقراء فقراً ، ونشأت هذه الطبقة المحدثة النعمة ، التي شبعت من المال ولا تزال في جوع إلى الرفاهية والبلهنية واللذائذ : طبقة « أغنياء الحرب »

إن أهل القصر لا يزالون في لهوهم وقصفهم ، وأهل الكوخ لا يزالون في كدهم وجدهم ، والمطر دائب ما ينقطع ، والبرد قارس ما يخف ، والليل موحش مخيف ، فمن لهؤلاء المساكين ، إن لم تجرد لنصرتهم الأقلام من أغمادها ، وتشرع حتى تصدع على هؤلاء الأغنياء حجارة القصر الذي اعتصموا فيه ، ليروا ما بالناس ويسمعوا ما خطب المساكين ، من إخوانهم في الوطن واللغة والدين . إنهم في سكرة الذهب ، فاصرخوا فيهم حتى يصحوا منها ، قبل أن يذهب السكر ويأتي « الأمر » ، فيروا أن أمر الله إذا جاء لا يرد . أفهموهم - وكيف السبيل إلى إفهامهم - أننا رأينا رأي العين ، ما قرأنا في الكتب ، ولا سمعنا من الناس ، من غني في الحرب الماضية أكثر مما غنوا ، وبذر أضعاف ما بذروا ، ثم ذهب المال والأهل ، وغدا يسأل الناس على أبواب المساجد ، ولولا أنه يحرم التصريح بعد التلميح ، لصرحت بأسماء أقوام عرفناهم ، وإن جهلهم من قصرت سنه عن أسناننا .

* * *

على أنني ما أعمم القول ، ولا أطلقه إطلاقاً ، وإن في الموسرين لمحسنين ، وفي التجار لمنصفين ، وما تخلو طبقة من خير ولا من شر ، ولكن في الموسرين من يريد الإحسان ولا يعرف المستحق له ، ومن المستحقين من لا يعرف المحسنين ، ومنهم من يعرف ولا يسأل ، أولئك الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف . وإن من أوجب ما يجب علينا في هذه الحرب أن ننشئ جمعيات موثوق رجالها ، بأمانتهم ودينهم ، تكون في كل حي كالوسيط بين الغني المحسن والفقير المحتاج ، تأخذ من الأول وتعطي « بعد التحقق من حاجته » الثاني ، ومن عرفت أنه اتخذ السؤال حرفة - على مقدرة منه على العمل ، أو على مال له قد خبأه ، فمل أكثر هؤلاء الكدين - رفعت أمره إلى الحكومة لتعاقبه عقاب المتشردين . ويا ليت هذه الجمعيات الإسلامية الكثيرة في مصر والشام والعراق : الإخوان والشبان والهداية والتمدن وأمثالها ، تجعل ذلك المطلب من بعض مطالبها

ثم إن من أهم ما ينبغي لهذه الجمعيات أن تصنعه هو أن تختار للاحسان أسلوباً يهون به العطاء على المعطي ، ويجزل به المنفعة للآخذ . ولقد وجدت أنا واحداً من مائة أسلوب تخطر على البال ، حين كنت « من نحو ثلاث سنوات » قاضياً في القلمون ، وضاقت الأقوات وقل الخبز ، فدعوت إلى ما سميته « مشروع الرغيف » ، وأعانني عليه القائم بأمر المنطقة يومئذ[1] ففرضنا على أهل كل بيت من القادرين رغيفاً واحداً في اليوم وكانا من يجمعه ، ووزعنا ما جمعناه على المحتاجين ، وتركنا من هم بين ذلك فلم نأخذ منهم ولم نطعمهم ، وهذا الرغيف الذي لا يصعب إعطاؤه على أحد ، ولا تشعر به الأسرة ، أحيا الله به أهل القلمون - وهم أكثر من سبعين ألفاً - في سنة القحط والضيق ، وما ذكرت ذلك لأفخر به ، ولا لأنه الأسلوب البديع الذي لا نظير له ، بل لأمثل به على ما أريد ، والعبرة بالأعمال لا بالأقوال

نسأل الله أن يوفقنا حتى نعمل ، ويرزقنا الإخلاص في عملنا حتى يقبل ، وألا يجعل هذه المقالة كالصرخة في البيداء .

(دمشق) **علي الطنطاوي**

(١) هو القائم مقام السيد زكي غزال من أنشط رجال الادارة في الشام

حول فلسفة نيتشه

سبيل مطروق . . . !

للأستاذ زكريا ابراهيم

اعتقد نيتشه أنه رائد الإنسانية الأول ، وظن أن أحداً قبله لم يطرق السبيل الذى طرقه ؛ ولكنّ الرّواد قبله كانوا كثيرين ، وهذا السبيل الذى ضرب فيه مطروق مطروق ! . فهذا الإيمان الشديد بالأرستقراطية وعبادة الذات ، قد سبقه إليه لاروشيفوكو وهلفتيوس ورينان وتين وبرودون وفلوبير وغيرهم . وذلك الاعتقاد الراسخ باستحالة المساواة بين الناس قد ذهب إليه من قبل « جوبينو » الذى أعجب به نيتشه أشد الإعجاب . وتلك الكراهية الشديدة للمذاهب الاشتراكية والفوضوية ، قد تردّدت من قبل على لسان « هارتمان » الذى أزرى به نيتشه كل الإزراء . وهذه الثورة العنيفة على الأخلاق السائدة والقيم الجارية ، قد لقيت من قبل فى « جويّو » أحسن معبّر عنها . وتلك الدعوى الجريئة إلى « اللاّ أخلاقية » immoralisme قد سبقه إليها أحد معاصريه وهو « شتيرنر » Stirner . — فليست رسالة زرادشت إذن جديدة كل الجدّة على الإنسانية ، وإنما هى رسالة ردّدها على مسمع منها كثير من مفكري العصر الحديث . وإذا كان فى هذه الرسالة شيء من الطرافة ، فذلك لأنها تعبّر عن شخصية صاحبها التى استطاعت أن تؤلف بين كل هذه الأفكار المختلفة . ومعنى هذا أن ما يروعنا ويستهوينا فى نيتشه ، هو أولاً وبالذات ، شخصيته ، لا آثاره . فهذه الشخصية الرائعة تنطوى فى أعماقها على نفس فنانة ، وقلب شاعر ؛ وفى أبعد أغوارها يكمن « الإنسان العظيم » الذى طالما تحدث عنه نيتشه نفسه !

بيد أننا مع ذلك مضطرون إلى أن نضرب صفحاً عن تلك الشخصية ، لكى نقصر النظر على آثارها . وقد أراد نيتشه أن نحكم عليه الإنسانية بما خلّف من آثار ، فلم يبق إلا أن نحاسبه على هذا الأساس . وما دام هو قد تنكّر للماضى ، وثار على تراث الإنسانية كله ، فلا بأس من أن نحكم على آثاره محاولين أن نتلمس ما فيها من جدّة مطلقة . — ولكن لا بد لنا من أن نقرر قبل ذلك أن نيتشه قد استثنى بعض المتقدمين ، فاعترف بالفضل لطائفة من الكتاب والمفكرين ، ممن أنجبتهم الحضارة الفرنسية « التى هو مدين لها » . وقد حرص نيتشه على أن يذكر بصفة خاصة ستندال ، فإن هذا المفكر الفرنسى — فيما يزعم نيتشه — قد استلبه أجل فكاهة إلحادية يمكن أن تخطر بالبال ، وهى قوله : « إن العذر الوحيد الذى يشفع لله هو أنه غير موجود ! » . ومهما يكن من شيء ، فإننا إذا استثنينا الإعجاب الذى أبداه نيتشه ببعض المفكرين الفرنسيين ، مثل : پول بورجيه ، وپيير لوتى ، وأناتول فرانس ، وجى دى موپاسان ؛ وببعض الشعراء الألمان مثل هينرش هَيْنى ؛ فإننا نجد أنه كان يعتبر دائماً أن أحداً لم يسبقه إلى تلك الأفكار الرائعة التى أعلنها ، وتلك الآراء الصائبة التى أبداها !

ولكننا نلاحظ — بالرغم من هذا الادعاء — أن جوبينو قد سبق نيتشه إلى كثير من هذه الآراء : فقد نادى جوبينو بانعدام التساوى بين الأجناس البشرية ، واعتبر الجنس الأوربى أرقى الأجناس ، وجعل على رأس هذه الأجناس جميعاً الجنس الجرمانى « الأشقر » . وفضلاً عن هذا ، فقد ذهب أيضاً إلى أن من حق الجنس الأوروبى — باعتباره أرقى الأجناس — أن يتحكم فى الأجناس الأخرى — باعتبارها أجناساً سفلى — وارتأى جوبينو أيضاً أن من الواجب تكوين صفوة أرستقراطية مختارة ، تتكوّن من تلك الجنسيات nationalités التى تنتسب إلى أرقى الأجناس races . — وقد انتشرت هذه الآراء التى نادى بها جوبينو فى ألمانيا كلها ، فأنشئت فى أواخر القرن التاسع عشر ، جماعة تحمل اسم جوبينو ، وتعرف فى ألمانيا باسم : Gobineau Vereinigung . وترددت آراء جوبينو على لسان نيتشه ، فقال فيلسوفنا بأرستقراطية الاجناس ، وإمكان قيام جنس أعلى ، أو نوع راق ، يكون جديراً بأن يطلق عليه اسم الجنس « الأعلى » أو « فوق الإنسانى » .

وليس جوبينو وحده هو الذى سبق نيتشه إلى بعض الآراء التى ادعاها نيتشه لنفسه ، بل لقد سبقه إلى ذلك أيضاً فيلسوف

آخر ألماني، هو ماكس شترنر الذي نادى بمذهب «اللاأخلاقية» والفردية المطلقة. وســواء أكان نيتشه قد عرف شترنر أم لم يعرفه، فإن هذا الفيلسوف (الذي عاش من سنة ١٨٠٦ إلى سنة ١٨٥٦) كان سلفاً مباشراً لنيتشه في المناداة بالمذهب اللا أخلاقي. ويمكن أن تلخص فلسفة شترنر في عبارة واحدة هي «تقديس الذات»، أو «عبادة الأنا». فالذات هي مركز العالم، والعالم – بما فيه من أشياء وأفكار وأفراد – إنما هو ملك للذات. وكل ما في الكون ليس له وجود حقيق بالقياس إلى الذات، التي هي الشيء الحقيقي الوحيد و «الإنسان» المجرد أو الإنسان باعتباره معنى كلياً (وهو ما يريد فورباخ أن يجعله موضع تقديسنا) ليس له أي وجود حقيق، «وإنما هو خيال لا يكون له وجود حقيقي إلا في ذاتي وبذاتي». ولما كانت الحقيقة الوحيدة هي حقيقة «الذات» أو «الأنا» فإن في استطاعتنا أن نتخذ لنا من هذه «الذات» le Moi مبدأ نسميه باسم «الواحد» أو «الفرد» La' unique. وما دامت الذات هي المبدأ الوحيد الذي يجب أن نأخذ به، فإن علينا أن نستبعد كل سلطة خارجية، سواء أكانت سلطة «الله» أم «الإنسانية» أم «الأخلاق اللاهوتية»، أم «الآمر المطلق»... إلى آخر تلك السلطات التي يراد فرض سيطرتها على الذات وإذن فإن علينا أن نهدم الأخلاق، لأن الأخلاق تقوم على «فكرة متسلطة» هي فكرة «الواجب» أو «الآمر المطلق». وهنا نجد أن نيتشه يتفق مع شترنر، فإن زرادشت سينادي بهدم الأخلاق، والثورة على المسيحية التي تضع للحياة قيماً فاسدة منحلة... أما القول بعبادة الذات أو تقديس «الأنا» فهذا أيضاً مما يتفق فيه نيتشه مع شترنر، فإن نيتشه هو الذي يقول: «إن وراء أفكارك وعواطفك (يا أخي) يكمن سيد قوي، بل حكيم مجهول، هو ذاتك نفسها Selbst وهو في بدنك يقيم، بل هو بدنك نفسه»!

ولا تقف أوجه الشبه بين نيتشه وشترنر عند هذا الحد، بل إنهما ليتفقان أيضاً في شيء أعمق من هذا، وهو القول بإرادة القوة «Wille znr Maeht»؛ فقد جعل شترنر لإرادة التوسع في القوة، والاعتداد بالذات، أهمية كبيرة في فلسفته، حتى إن هذه الإرادة لتبدو عنده باعتبارها «القوة الأساسية للكائن البشري»؛ وهذه الفكرة هي التي ستصبح على لسان زرادشت الأغنية المحببة التي يرددها نيتشه في كل حين. — فنحن نرى من هذا كله أن شترنر قد سبق نيتشه في الثورة على الأخلاق، والانتقاض على المسيحية، والدعوة إلى عبادة الذات. فلم يكن نيتشه إذن أول من ضرب بقدمه في هذا السبيل، بل كان شترنر هو الرائد الأول الذي سار في الدرب الذي طرقه السابقون، حتى نهايته. وكل مافعله نيتشه هو أنه جدد أفكار شترنر، وردد آراءه — دون أن يكون قد وقف عليها — كما ردد أيضاً آراء السوفسطائيين والكلبيين وبعض المحدثين مثل لاروشيفوكو وهلفتيوس وهولباخ وفريدريك شليجل وستندال — مع وقوفه عليها —.

ونستطيع أن نضيف إلى هؤلاء الفلاسفة الذين أثروا في نيتشه أو الذين سبقوه إلى الآراء التي نادى بها، فيلسوفاً آخر يتفق مع نيتشه في أنه شاعر مثله، ويختلف عنه في أنه ليس منحرف الطبيعة مثله. أما هذا الفيلسوف الشاعر فهو جويو Guyau صاحب كتاب «صورة مجملة لأخلاق بلا تكليف ولا جزاء»[1] وقد ذهب هـــذا المفكر الفرنسي في مؤلفه مذاهب شتى، بعضها يتفق مع ما ذهب إليه نيتشه اتفاقاً كبيراً حتى إنه ليصعب علينا أن نتصور أن يكون نيتشه لم يطلع على ما جاء فيها. ومما يتفق فيه الفيلسوفان:

أولا: القول بأن «الحياة هي الكل» tout est vie بمعنى أنه ليس في وسعنا أن نتصور شيئاً ما على أنه موجود حقيقة إلا إذا كان هذا الشيء حياً.

وثانياً: القول بأن الأخلاق التي تنادي بفكرة الواجب والآمر المطلق، أخلاق فاسدة يجب القضاء عليها، لأن الالزام أو التكليف يرجع إلى الحياة نفسها، إذ الحياة هي التي توفر للفرد الشعور بالقدرة على العمل، وليس هناك قوة سحرية غريبة «كالآمر المطلق» المزعوم

(١) «Esquisse d' une moryale sans obliqation ni sanction» وهذا كتاب فريد يجب أن ينقل إلى العربية، ولعلنا نلخص للقراء طرفاً مما جاء به في مقال نكتبه عن جويو

وثالثاً : القول بأن التشاؤم يدعو إلى الانحلال والفناء ، فى حين أن التفاؤل يكسب الحياة خصباً وامتلاء ، فكل من جويو ونيتشه يعتبر التشاؤم مظهراً للانحلال والهبوط والفناء . . .

رابعاً : القول بأن الفن هو المعنى الباطن للحياة بمعنى أنه ليس مجرد متعة أو ألهية ، بل هو أمر جدى له قيمته فى الشعور بالحياة الحافلة الخصبة المليئة . فكل من جويو ونيتشه ينظر إلى الفن نظرة حيوية ، ولا يعده عديم الغاية بل يذهب إلى أن الفن للحياة وبالحياة . ومعنى هذا أن الفن عندهما ليس للفن — كما يقال عادة — بل هو غائى ، وغايته ليست تقويم الاخلاق أو إصلاح الناس ، بل تقوية الشعور بالحياة

وأما النواحى التى يختلف فيها جويو مع نيتشه ، فهى تلك التى تمس مشكلة « الفردية » ؛ وذلك لأن جويو يعتقد أن الرجل القوى ليس هو الرجل المتوحد (كما يزعم نيتشه) بل هو الرجل الذى تجمعه بغيره من الناس ، وشائج العقل والقلب . فعلى الرغم من أن جويو يتفق مع نيتشه فى القول بالحياة الخصبة المليئة ، إلا أنه يتصور هذه الحياة على أنها أولا وبالذات ، حياة اجتماعية تنعدم فيها الأنانية ، لأن الأنانية سلب للحياة نفسها ، وإنكار لكل خصب أو امتلاء . . ولعل خير ما يوضح لنا الفارق بين نيتشه وجويو ، هو أن الأول يدعونا إلى اتباع الطبيعة (كما دعا إلى ذلك الأقدمون) ، فى حين أن الثانى يدعونا إلى تعميق الطبيعة . فنيتشه يقول : « اتبع الطبيعة » Suivez la nature ؛ وأما جويو فانه يقول : « عمق الطبيعة » Approfondissez la nature

ومهما يكن من شىء ، فان جويو هو بلا ريب واحد من أولئك الرواد الذين سبقوا نيتشه فى الطريق الذى سلكه . وقد رأينا أن هؤلاء الرواد كثيرون ، فهل علينا من حرج بعد هذا إذا قلنا إن السبيل الذى سلكه نيتشه سبيل مطروق ؟

(السويس) زكريا ابراهيم
مدرس بمدرسة السويس الثانوية

إشهار الرؤوس المقطوعة
في أيام العباسيين
للأستاذ ميخائيل عواد

تمهيد:

فى مقال سابق لنا ، ذكرنا أخبار « خزانة الرؤوس » فى دار الخلافة العباسية ببغداد (١) ، وما ضمته رفوفها من رؤوس لعب أصحابها أدواراً خطيرة فى ميادين السياسة والادارة والفكر. وها نحن أولاء ننتقل إلى بحث آخر ذى صلة بهذا الموضوع ، « وهو إشهار الرؤوس المقطوعة فى أيام العباسيين » وذلك فى مختلف البلدان الاسلامية ، فنقول :

أولاً – نصب الرؤوس فى سامراء

١ – رأس الخليفة المستعين بالله :

تنكر الأتراك للمستعين لمّا قتل بعض أعيانهم مثل : وَصيف وبُغَا ، ونفى باغر التركيّ الذى فتك بالمتوكل ، ولم يكن له مع وصيف وبغا أمر حتى قيل فى ذلك :

خليفة فى قفص بين وصيف وبُغا
يقول ماقالا له كما تقول البغا (٢)

وانحلّ أمره بعد وقعات كثيرة ، فخلع نفسه وأُحدر إلى واسط ، فأقام بها تسعة أشهر محبوساً ، ثمّ رُدّ الى سامراء ولم يبلغها حتى حُزّ رأسُه ، قال المسعودى : « ولمّا كان فى شهر رمضان من هذه السنة ، وهى سنة اثنتين وخمسين ومائتين ، بعث المعتز بالله سعيد بن صالح الحاجب ليلاقى المستعين ، وقد كان فى جلة من حمله من واسط ؛ فلقيه سعيد وقد قرب من سامراء فقتله واحتزّ رأسه وحمله إلى المعتز بالله ، وترك جثته ملقاة على الطريق ، .... وذكر شاهك الخادم ، قال : كنت عديلاً للمستعين عند إشخاص المعتز له الى سامراء ونحن فى عمّارية ، فلمّا وصل إلى القاطول تلقّاه جيش كثير ، فقال : ياشاهك انظر مَن رئيس القوم ؟ فإنْ كان سعيد الحاجب فقد هلكتُ. فلمّا عاينته قلتُ هووالله سعيد ، فقال إنّـالله وانا اليه راجعون! ذهبتْ والله نفسى (١) وجعل يبكى . فلما قرب سعيد منه جعل يقنعه بالسَّوط ثمّ أضجعه وقعد على صدره واحتزّ رأسه وحمله ... » (٢)

قال ابن الاثير : « وحُمِل رأسه (أى رأس المستعين) إلى المعتز وهو يلعب بالشطرنج ، فقيل هذا رأس المخلوع . فقال ضعوه حتى أفرغ من الدست .. » (٣) .

وفى كتاب « الديارات » للشابشتى وصف مؤثر لهذا المشهد المحزن الذى حلّ برأس المستعين . قال : « وذكر أحمد ابن حمدون قال : بنَى المعتز فى الجَوْسَق فى الصَّحن الكامل بيتاً قَـدَّرَتهُ له أمّه ومثلت حيطانه وسقوفه ، فكان أحسن بَيْت رُئى . قال : فدعانا المعتز اليه فكُنّا فى أحسن يوم رُئى سروراً . وخلف الستارة مُغَنّية تُغَنى أحسن غناء ليس لى بها عَهْد . قال : فنحن فى ذاك ، إذْ دَخل علينا خادم فى يده طَبَق عليه مكَبّة ، فوضعه فى وسط البيت ، وكان فى يد المعتز قَدحٌ فشربه وشربنا ، ثم قال للخادم : ارفع المكَبّة ، فرفعها ، فاذا رأس المستعين فى الطَبَق . فلما رأيته شَـهِقْتُ وبكَيْتُ . فقال لى المعتز : يا ابن الفاعلة ، ماهذا ؟ كأنّك داخلَتْك له رِقّة . فثاب إلىّ عقلى وتَماسَكتُ وقلتُ : ما كان لِرِقّة ، ولكنى ذكرتُ الموتَ . فأمرَ الغُلام بردّ المكَبّة ورفع الطبق ، فرفعه . وكان المعتز داخَلَتْه فترة ، وكذلك جميع مَنْ حضر وافترقنا عن الحال التى كُنّا عليها من السُّرور . قال : فنحن كذلك إذ سمعنا وراء السِّتْر ضجّة أفزعتنا ، فإذا امرأة تصيح ، وامرأة أخرى تَشْتُم الصائحة ، والصائحة تقول : ياقوم أخذتمونى غصباً ثمّ تجيئونى برأس مولاى

(١) الرسالة : (الأعداد ٤٨٩ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٩٤٥)
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطى (ص ٢٣٨ ؛ طبع مصر)

(١) وفى رواية أخرى أنه قال : « قد جاء جزار بنى العباس » المنتظم لأبى الفرج بن الجوزى (٥ : ٧٢ ؛ فى ترجمة أحمد بن طولون)
(٢) مروج الذهب (٧ : ٣٦٩ — ٣٧١ ؛ طبع باريس) ؛ وانظر تاريخ الطبرى (٣ : ١٦٧٠ — ١٦٧٥ ؛ طبعة دي غويه)
(٣) الكامل فى التاريخ (٧ : ١١٦ ؛ طبعة تورنبرغ = ٧ . ٦١ ؛ بولاق)

فتضمونه بين يدىّ ! فسمعنا صوت العود قد ضرب بم أمها . قال : وكان الشاتم لهـا والضارب قبيحة [١] ، وكانت الجارية من جوارى المستعين . قال : فانصرفنا عن المجلس أقبح انصراف وقد تنغص علينا ما كنا فيه ، ولم تمض إلا أيام يسيرة حتى وثب الأتراك على المعتز فقتلوه . ثم دعى بنا لننظر إليه فدخلنا عليه فى ذلك البيت ، فإذا هو ممدود فى وسطه ميتاً [٢] »

٢ — رأس صالح بن وصيف

روى قصته الطبرى فى حوادث سنة ٢٥٦هـ ، ودونك بعض ما قاله فى رواية مقتله : « ... وقيل إنه حمل على برذون سنابى والعامة تعدو خلفه وخمسة من الخاصة يعدون منه ، حتى انتهوا به إلى دار موسى بن بغا ... فلما صاروا به إلى حد المنارة ضربه رجل من أصحاب مفلح ضربة من ورائه على عاتقه كاد يقده منها ، ثم احتزوا رأسه وتركوا جيفته هناك ، وصاروا به إلى دار المهتدى ، فوافوا به قبيل المغرب وهو فى بركة قباء رجل من غلمان مفلح يقطر دماً ، فوصلوا به إليه وقد قام لصلاة المغرب فلم يره ، فأخرجوه ليصلح ، فلما قضى المهتدى صلاته وخبروه أنهم قتلوا صالحاً وجاءوا برأسه ؛ لم يزدهم على أن قال واروه ، وأخذ فى تسبيحه ... فلما كان يوم الإثنين لسبع بقين من صفر حمل رأس صالح بن وصيف على قناة وطيف به ونودى عليه : هذا جزاء من قتل مولاه . ونصب بباب [٣] العامة ساعة ، ثم نحى وفعل به ذلك ثلاثة أيام تتابعاً . وأخرج رأس بغا الصغير [٤] فى وقت صلب رأس صالح ، يوم الإثنين ؛ فدفع إلى أهله ليدفنوه ... فقال السلولىُّ أوسى إذ قتل صالح بن وصيف :

وصيف بالكرخ ممثول به وبغا   بالجسر محترق بالجمر والشرر

وصالح بن وصيف بعد منعفر   فى الحير جيفته والروح فى سقر [١]

ثانياً — رؤوس جماعة من بنى أمية

بين يدينا أخبار رؤوس لقوم من بنى أمية ، قطعت قبيل ظهور دولة بنى العباس ؛ أو إبان ظهورها ، ثم نقل بعض هذه الرؤوس إلى العراق ، وكان من أشهرها :

١ — رأس عبيد الله بن زياد

الوقعة التى قتل فيها ابن زياد مشهورة فى التاريخ . قال ابن عبد ربه : « ... ولما التقى عبيد الله بن زياد وابراهيم بن الأشتر بالزاب . قال : من هذا الذى يقاتلنى ؟ قيل له : ابراهيم بن الأشتر . قال : لقد تركته أمس صبياً يلعب بالحمام . قال : ولما قتل ابن زياد بعث المختار برأسه إلى على بن الحسين بالمدينة . قال الرسول : فقدمت به عليه انتصاف النهار وهو يتغدى . قال : فلما رآه قال سبحان الله ما اغتر بالدنيا إلا من ليس لله فى عنقه نعمة ، لقد أدخل رأس أبى عبد الله على ابن زياد وهو يتغدى . وقال يزيد ابن معن :

إن الذى عاش ختاراً بذمته   ومات عبداً قتيل الله بالزاب [٢]

٢ — رأس مروان الحمار :

وهو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم آخر خلفاء بنى أمية . وبقتله طويت صفحة بنى أمية من ديار المشرق . قال ابن الأثير فى رواية مصرعه : « وحمل رجل على مروان فطعنه وهو لا يعرفه ، وصاح صائح : صرع أمير المؤمنين فابتدروه ، فسبق اليه رجل من أهل الكوفة كان يبيع الرمان فاحتز رأسه فأخذه عامر فبعث به الى أبى عون ، وبعثه أبو عون الى صالح ، فلما وصل اليه أمر أن يقص لسانه ؛ فانقطع لسانه فأخذته هر . فقال صالح : ماذا ترينا الأيام من العجائب والعبر ، هذا لسان مروان قد أخذته هر . وقال شاعر :

(١) هى أم الخليفة المعتز بالله العباسى كانت رومية فاتنة فى الجمال نسميت قبيحة من أسماء الأضداد . توفيت بسامراء فى سنة ٢٦٤ هـ
(٢) الديارات للشابشتى ؛ مخطوط برلين ؛ الورقة ٧٣)
(٣) هو أحد أبواب مدينة سامراء ، له ذكر كثير فى التاريخ . راجع مثلا تاريخ الطبرى ٣ : ١٣٣٠ ، ١٣١٨ ، ١٥٠٤ ، ١٥٠٥ ، ١٥٢٢ ، ١٦٦٢ ، ١٧٢٣ ، ١٨١١ ، ١٨٢١ ، ١٨٥٩ ، ١٨٧٤ ؛
(٤) قتل فى سنة ٢٥٤هـ ، وحمل رأسه إلى المعتز ، ونصب فى سامراء ثم فى بغداد ، وأحرقت المغاربة جثته انظر الكامل لابن الأثير ٧ : ١٢٦ ؛ ليدن = ٧ : ٦٦ بولاق ،

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ١٨١٠ — ١٨١١ ؛ وانظر الكامل لابن الأثير ٧ : ١٥٥ ليدن = ٧ : ٨٠ ؛ بولاق ؛
(٢) العقد الفريد ٣ : ١٥١ — ١٥٢ طبعة القاهرة سنة ١٩١٣)

معرض الفن البريطاني الحديث

للأستاذ نصرى عطا الله سوس

الفن لا زمان له ولا مكان ، بل هو تراث الانسانية الخالد على مر الأزمان . وحين تتيح لنا أمة من الأمم فرصة مشاهدة آثارها الفنية تمهد لنا السبيل إلى مشاركة فنانيها ورجال الفكر فيها ، أسمى أحلامهم وأمانيهم وأنبل عواطفهم واحساساتهم .

فى الفن وحده يتسامى الانسان عن المطامع والدنايا والمشاغل الدنيوية ، ويفسح الطريق لعواطفه ومشاعره التى تؤكد المعنى الانساني فيه ، المعنى الانسانى الذى لا يعرف الحدود الجغرافية أو المطامع السياسية وما تثيره من أحقاد وضغائن وفرقة ، والفن وحده هو النبراس الهادى الذى يذكرنا دائما أن البشر عائلة واحدة مهما احتدم بينهم الخلاف والبغضاء . وتبادل التراث الثقافى هو خير مايعزز هذا الاحساس فى الانسان . ومعرض الفن البريطانى المعاصر الذى أقيم فى القاهرة خلال هذا الشهر [1] مجهود طيب من مجهودات « المجلس البريطانى » فى سبيل تعزيز الألفة الثقافية والفكرية بين مصر وانجلترا

وقد قسم المعرض إلى أقسام ثلاثة : قسم الصور الزيتية والمائية ، وقسم الحفر والنقش ، وقسم رسوم الأطفال . ويحتوى القسم الأول على مايقرب من مائة لوحة لأقطاب الفن الحديث فى انجلترا ، وهى تعطينا فكرة صادقة عن هـذا الفن خلال الأربعين سنة الأخيرة . ولا شك عندنا فى أن المجهود الذى بذل فى انتقاء هذه المجموعة من بين آلاف اللوحات كان مجهودا كبيرا صاحبه التوفيق إلى أبعد الحدود فى اختيار خير العناصر التى تمثل مختلف المدارس الفنية المعاصرة فى بلاد الانجليز

والفن الانجليزى المعاصر لا يتميز بطابع إقليمى قوى ، ذلك لأن غالبية أقطابه تلقوا دراساتهم فى البلدان الأوربية الأخرى وبخاصة باريس ؛ كما أن سهولة المواصلات وسرعة تبادل الانتاج الفكرى ساعد الفنانين الانجليز على سرعة استيعاب المذاهب الفنية الأوربية والتأثر بها .

(١) معرض الفن البريطانى المعاصر بسراى الجمعية الزراعية الملكية بالقاهرة من ١٠ — ٢٨ يناير سنة ١٩٤٠

قد فتح الله مصر عنوةً لكم
وأهلك الفاجرَ الجَعْدىَّ إذْ ظلما

فلاك مقوله هـــرٌّ يجـــرره
وكان ربُّك من ذى الكفر منتقما

وسيره صالح الى أبي العبّاس السفاح . وكان قتله لليلتين بقيتا من ذى الحجة ، ورجع صالح الى الشام . . . ، ولما وصل الرأس إلى السفاح وكان بالكوفة ؛ فلما رآه سجد ثم رفع رأسه فقال : الحمد لله الذى أظهرنى عليك وأظفرنى بك ، ولم يبق ثارى قبلك ... » [1]

٣ — رأس مصعب بن الزبير

قال ابن عبد ربه فى رواية مقتل مصعب بن الزبير : « ... فجاءه عبيد الله بن ظبيان وكان مع مصعب ، فقال : أين الناس أيها الأمير . فقال : غدرتم يا أهل العراق . فرفع عبيد الله السيف ليضرب مصعباً ، فبدره مصعب فضربه بالسيف على البيضة ، فنشب السيف فى البيضة ، فجاء غلام لعبيد الله بن ظبيان فضرب مصعباً بالسيف فقتله . ثم جاء عبيد الله برأسه إلى عبد الملك بن مروان وهو يقول :

نطيع ملوك الأرض ما أقسطوا لنا
وليس علينا قتلهم بمحـــرم

قال : فلما نظر عبد الملك إلى رأس مصعب ، خرّ ساجداً ، فقال عبيد الله بن ظبيان وكان من فتاك العرب : ما ندمت على شىء قط ندمى على عبد الملك بن مروان إذ أتيته برأس مصعب فخر ساجداً ؛ أن لا أكون ضربت عنقه فأكون قد قتلت ملكى العرب فى يوم واحد .. ، الرياشى عن الأصمعى ، قال : لما أتى عبد الملك برأس مصعب بن الزبير ، نظر إليه ملياً ثم قال : متى تلد قريش مثلك ... » [1]

(البقية فى العدد القادم) ميخائيل عواد

(١) الكامل فى التاريخ (٥ : ٣٢٢ ؛ ليدن ؛ حوادث سنة ١٣٢ هـ) . وراجع تاريخ الطبرى (٣ : ٤٤ — ٥١) ، ومروج الذهب (٦ : ٧٦) ، والفخرى فى الآداب السلطانية (ص ١٧٥ ؛ طبعة أهلورد) .

(١) العقد الفريد (٣ : ٢٥٥)

ولطالما نعى النقاد — حتى الانجليز منهم — على الفن البريطاني خلوه من الروح الفنية الصحيحة وضعف « معنوية الشكل » فيه ، ولكن المجموعة المعروضة الآن تثبت أن الفنانين البريطانيين قد تحرروا إلى حد بعيد من ذلك الجمود الذى كان يرن على مجهود الكثيرين منهم . وفى هذا المعرض مجال طيب لدراسة الفن البريطانى المعاصر، كما أنه مجال خصب للتأملات الحرة التى تتصل بجوهر الفن عامة دون تقيد بعصر من العصور أو أمة من الأمم

وجولة سريعة فى هذا المعرض تقنع المشاهد أن الفنان الانجليزى يبلغ أوجه عندما يرسم مناظر الطبيعة الريفية فى بلاده ، فالصورة رقم ٧ (سنودنيا — لرايموند كوكسن) تتميز بقوة التصميم والتعبير وحرارة اللون ودقته وحيوية العاطفة . والصورة رقم ٨٣ (منظر طبيعى فى وادى ستور — لرولاند سدلى) تمتاز بالتعبير الشعرى وحسن اختيار اللون والشكل . والصورة رقم ٢٧ (كنيسة — بريشة د . أبز) والصورة رقم ٥٧ (تلال — لفيفيان بشفورث) تمتازان بالألوان الحية المعبرة

والصورة رقم ٧٣ (برارى فى دورست — لستانلى سبنسر) ليست إلا صلاة للطبيعة بالشكل والألوان وهى تنم بنضوج العاطفة وحرارتها وقوة الأداء ، وتستطيع أن تشعر صادقا وأنت تتأمل هذه الصورة بذلك الشعور الصوفى الذى يستولى على الفنان عندما ينساق إلى الرسم انسياقا استجابة لقوة أكبر منه . . . .

وللرسام ولسن ستير (١٨٦٠ — ١٩٤٢) أربع لوحات . وستير من أقطاب المدرسة التأثرية ، وأحد مؤسسى نادى الفن الانجليزى الحديث الذى كان له أكبر الأثر فى اتجاه الفن المعاصر بانجلترا . تعلم فى باريس ، ورسومه الأولى متأثرة كل التأثر بمانيه ، وديجا ، ومونيه ، ورينوار ، ولكنه استطاع فيما بعد أن يتخلص إلى حد ما من طابع التأثريين ويسير فى طريق كبار الرسامين الانجليز مثل ترنر وكونستابل وجيتز بورو . وصوره الأخيرة تجمع بين الطابعين الانجليزى والفرنسى . وهو يجيد كل الاجادة عندما يرسم الأراضى المغطاة بالغابات والمساحات الشاسعة التى تغمرها الظلال والأضواء وهو خير من يبين لنا أى تأثير كبير يستطيع أن يحدثه الفنان الكبير فى نفوسنا مع بساطة الأداء وسذاجته .

وأنا حين أضفى هذه الصفات السخية على هذه الأعمال الفنية التى ذكرتها لا أعنى أن كل هذه الأعمال توضع جنباً إلى جنب مع روائع التراث الفنى العالمي، ونحن لا نستطيع أبداً وليس من حقنا أن نطالب الفنان بما ليس فى طوقه ، إنما نستطيع أن نلزمه بالصدق والاخلاص لعاطفته والمحافظة على كيان شخصيته وطابعها ، وهو إذا التزم هذه الحدود يستطيع أن ينتج شيئاً ، ونستطيع نحن أن نجد فيه مجالا للمتعة الذوقية برغم ما يعتوره من ضعف ، وكل ما يجب أن يتخلص منه الفنان والناقد والجمهور هو : الانخداع . فعلى الفنان أن يعرف حدود طاقته ولا يتعداها ، وعلينا أن نقدره التقدير الصحيح ونضعه فى موضعه اللائق — وقد قال « جيته » مرة : ما أسعد الرجل الذى يكتشف سريعاً الهوة بين رغباته وبين مقدرته — وطابع الاخلاص ظاهر جداً فى الصور التى تحدثت عنها وهو يكسبها حلاوة وجمالا برغم بساطتها ويسرها . ونطالع طابع البساطة أيضاً فى بعض مناظر الطبيعة الصامتة : فالصورة رقم ٣٨ (منضدة جانب الفراش لادوارد لبا) تعبر عن عاطفة لاتتكلم بل تغنى وتغنى بحرارة تتمثل فى فرحة الألوان الزاهية . والصورة رقم ٩ (زاوية غرفة المكتب لدى بليس) تقول كل ما تقوله بالالوان فقط وهى تقول شيئا ما برغم بساطة التصميم وفجاجته .

ويعتبر دنكن جرانت من أقطاب الفن البريطانى الذين يمتازون بالحساسية الشعرية وقوة اللون وحسن اختيار الشكل وبراعة الأداء ، وكل هذا يبدو جليا فى لوحتيه رقم ١٨ (المقوان) ورقم ١٩ (صورة شخصية) ؛ وكأن صفاء نفس صاحبة هذه الصورة الأخيرة سرى إلى نفس الفنان فاختار اللون واللباس والجلسة التى تساعد على إبراز المعانى النفسية الوادعة البادية على وجه السيدة صاحبة الرسم .

وفى المعرض مجموعة لابأس بها من صور الأشخاص ، من أهمها الصورة رقم ٣١ لجون چون، وهى صورة جانبية لفتاة صغيرة وهى من فرائد هذا المعرض فى قوة الشكل وحيوية التعبير

وهناك صورة لأوجستس چون بريشته ، وهى تمثل تمثيلاً قوياً الفنان اللاهى دائماً عن عالمنا ، الشارد الذهن دائماً وراء عرائس الإلهام . وچون فنان بوهيمى غذى الفن الإنجليزى

بدماء جديدة بدت غريبة أول الأمر وحدت من شهرته، ولكنه تطور مع الزمن . ويمتاز فنه إبان نضوجه بالميل إلى التبسيط ووضوح الألوان وصفائها . وصور الأشخاص التي يرسمها تمتاز بقوة التعبير وصدق الدلالة على نفسية الشخص المرسوم

ومن الأعلام الممثلين في هذا المعرض السير وليم أوربن الذي لفت الأنظار إليه منذ صدر شبابه لبراعته وقدرته وتمكنه من مختلف نواحي الفن، فمنذ أكثر من ثلاثين عاما وأوربن يرسم صور الأشخاص وصور الطبيعة الحية والطبيعة الصامتة في يسر وسهولة وتوفيق في التعبير والأداء . ومنهم أيضاً رتشارد سكوت (١٨٦٠ - ١٩٤٢) وهو من أصل ألماني ، وقد قيل عنه إنه رسام أدبي ، أي أنه يعنى بما تقصه الصورة أكثر من عنايته بالشكل . وقد تتلمذ على ويسلر، ولكن غلب عليه طابع التأثريين خاصة ديجا - وصوره تغلب عليها الألوان القاتمة والظلال ، وكان يفضل الرسم في الأيام القاتمة ، وأكثر رسومه لردهات داخلية قليلة الحظ من الضوء

وأود أن أشير هنا إشارة خاصة إلى الصورة رقم ٨٨ (منظر البحر لإيثيل ووكر) وهي من أنفس ما في المعرض ، والذي يتأمل هذه الصورة تأملاً صادقاً ينسى ما تحكيه - أي البحر والأمواج - ويذكر العاطفة الحية المتوثبة ، الغامضة ، الشادية ، التي تستولي على نفوسنا أحياناً ، فتجعلنا نحس أن الكون لحن كبير قوي ، وإننا بعض هذا اللحن نحس موسيقاه في قلوبنا ، وتهزنا هذه الموسيقى هزاً منغماً كما يهتز القارب الصغير على صفحة الأمواج اهتزازاً قوياً متداركا

***

قلنا إن الفنان الذي يلتزم حدود ذاته يستطيع أن ينتج شيئاً ما ، ونقول أيضاً إن التفرد والشذوذ مع القوة ، والإيمان بسداد هذا التفرد والشذوذ عبقرية وأصالة لا شك فيهما

ويتمثل التفرد والشذوذ في أعمال الفنانين المحدثين، ويمثلهم في معرضنا - تمثيلاً روعي فيه الجودة والتعقل - هنري مور وسذرلند، وآخر ينسج على منوال هذا الأخير اسمه ادوار أرديزون (صاحب الصورتين رقم ١ ، ٢) وأعمالهم لا تخلو من صدق في العاطفة والأداء

وهنري مور رسام ونحات ، وهو كصاحبه سذرلند مجدد يتسم بالجرأة والخروج على الأشكال المألوفة ، ورغم ذلك - أو لذلك - لا يستطيع الناقد إلا أن يسلم له بأنه فنان بل فنان كبير أحيانا

وسذرلند لا يتقيد بالطبيعة إلا فيما ندر ، وإذا تقيد بها اختار ما لم تألفه العين من الأشكال والألوان فيوفق أحياناً ويخونه التوفيق أحياناً ، وعلى كل أعتقد أنه خير من استطاع أن ينتزع من الطبيعة نفسها مادة للتعبير المجرد المعبر

والجزء الأكبر من إنتاج هؤلاء الفنانين المحدثين لم تتقرر قيمته الفنية بعد ، ومن العسف أن يحكم الناقد ذوقه الفردي في ظاهرة فنية عالية كالتي نحن بصددها . وإن كنا نرى أن النظريات الفنية الحديثة في حد ذاتها معقولة ومقنعة ، ولكن الإنتاج الفني نفسه تعوزه القوة والعاطفة والخيال والطواعية أي ينقصه كل عناصر الفن !

وهذا الفن الحديث فيما أرى لا يمثل التحرر من القديم ، بل يمثل عنف الثورة والتمرد على القديم - والثورة والتمرد عنصران سلبيان ، والدافع إليه في الغالب اقتناع ذهني لا تسنده عاطفة أو خيال ، وكل ما يستطيع أن يقوله الناقد المعتدل إن هذا الفن قد ينضج مع الزمن

وقد راعى منظمو هذا المعرض ذلك ، فهناك صورة واحدة تمثل مذهب السريالزم ، وأخرى تمثل المذهب التكعيبي ، وثالثة تمثل ما يسمى النيو ريالزم ، ورابعة تمثل الفن التجريدي ، والأخيرة (رسم رقم ٨٥ لجون تنارد) قطعة فذة في نوعها تمتاز باللون والتصميم وموسيقية التعبير ، وهي تبين لنا أن الفنان الصادق الإحساس ينجح دائماً مهما اتسم « الزي » الذي يختاره لعاطفته بالغرابة والبعد عن المألوف

وما دمنا بصدد الحديث عن النزعات الفنية الحديثة يمكننا أن نقول إن الفنان الإنجليزي عامة أخذ يحس ويبرز في لوحاته المعاني اللونية الباطنة للأشكال الطبيعية ، ولعل هذا أكبر حسنات النظريات الفنية الحديثة .

نصري عطا الله سوس

المسلمون في بولندا (١)

الأستاذ مصطفى كمال عبد العليم

هناك صفحة ليست معروفة تماما فى التاريخ البولندى تتعلق بتاريخ القبيلة التترية الاسلامية التى استوطنت المنطقة الشمالية الشرقية من بولندا . فكما استقرت الشعوب الإسلامية فى أوربا كغزاة — إذا استثنينا مسلمى يوغوسلافيا الذين هم من أصل صربى أسلموا عن طريق الغزو السلمى — كذلك استوطن تتار بولندا اقليما لم يطأه غازٍ مسلم من قبل . ومن المعروف أنهم بدأوا يستقرون فى بولندا منذ منتصف القرن الرابع عشر .

وليس هناك من شك فى أصلهم الجنسى ، فهم من الجنس التركى المنولى انحدروا من امبراطورية جوشى بن جنكز خان وعرفوا باسم « الرعيل الذهبى » فى غربى القبشاق (٢) . ولكى نعرف متى وكيف استقروا فى بولندا يجب أن نعرف أسباب تكوين تلك البقعة الإسلامية الصغيرة وظروف ذلك التكوين ، ثم كيف استطاعت هذه الفئة المسلمة وهى محاطة من كل جانب بشعوب مسيحية — أن تحتفظ بدينها خلال كل تلك القرون ، وبخاصة من القرن الرابع عشر إلى القرن السابع عشر ، تلك القرون التى تميزت بالنضال العنيف بين المسيحية والإسلام .

هناك حقيقتان ثابتتان أولاهما : أنهم بدأوا فى الاستقرار قبل سنة ١٣٩٢ وذلك من وثيقة ترجع إلى ذلك التاريخ تتعلق بمنح قطعة أرض لأسرة تترية . والأخرى : من وثائق ترجع إلى سنة ١٤٧٥ أمكن معرفة استقرار مركزهم الاجتماعى والقانونى إذ ذاك ، فهم يمتلكون اقطاعيات منحتها لهم السلطات المركزية مقابل تعهدهم بالخدمة العسكرية وقت الحرب . فما هى الأسباب التى دعت هذه السلطات إلى أن تسمح بايواء عنصر غريب الجنس والدين فى أراضيها ؟ حقيقة أن هناك خدمة إجبارية وقت الحرب مقابل هذا الإيواء ، ولكن حتى هذا الالزام دليل واضح على ثقة السلطات بهؤلاء التتار فما علة ذلك ؟

أخذ أسلاف التتار فى الاستقرار فى ضواحى مدينة فيلنو البولندية التى كانت تابعة لدوقية لتوانيا فى القرن الرابع عشر . وكانت لتوانيا إذ ذاك دولة متسعة ممتدة من نهر تيمن إلى نهر أوكا ، ومن البحر البلطي إلى البحر الأسود ، وكانت مهددة بغارات الفرسان التيوتون فى الغرب ، وامارة موسكو الناشئة فى الشرق التى بدأت تسود الامارات الروسية الأخرى بفضل مساعدة « الرعيل الذهبى » التابعين لموسكو . وكان سكان لتوانيا يبلغون بضعة آلاف ، فكان يخشى أن تنفصل الامارات الروسية التابعة للتوانيا لتنضم إلى موسكو بحكم اللغة ووحدة الدين . فكان على لتوانيا أن تحارب فى اتجاهين متضادين ، وكان على أدواقها تجنب الاشتباك مع الرعيل الذهبى القوى ، وكسب تحالفه إن استطاعوا . وهذا ماحدث فعلا سنة ١٣١٩ . فكان هذا التحالف موجها أولاً سنة ١٣٧٠ ضد الفرسان التيوتون ، ثم ضد موسكو ثانياً سنة ١٣٨٠ . هذا هو مبدأ الإتصال بين التتار المسلمين وبين لتوانيا وبولندا . وقد يتصور البعض أنه من الصعب تحالف شعبين أحدهما مسلم والآخر مسيحى فى ذلك الوقت الذى يفور بالعصبية العمياء ، ولكن إذا عرفنا أن اللتوانيين كانوا وثنيين أمكن تصور حدوث مثل هذا التحالف

ثم كان أن اتحدت لتوانيا مع بولندا سنة ١٣٨٦ واعتنق اللتوانيون الكثلكة ، ولم يؤثر ذلك فى سياسة لتوانيا نحو الرعيل الذهبى ، بل بالعكس ازداد انتظام العلاقات الودية بين التتار المسلمين وبين المملكة اللتوانية البولندية المتحدة الكاثوليكية .

لم تعد لتوانيا تقنع باضعاف موسكو ، بل تريد القضاء عليها ، فتدخلت فى شؤون الرعيل الذهبى الذى بدأ يتفكك فأخذت تناصر الخانات الأقوياء لتفيد منهم فى القضاء على إمارة موسكو ، كما شجعت هجرة التتار إلى أراضيها ، ومن ثم سمحت لهم بالاستقرار حول فيلنو كما وجد التتار المطرودون من القبشاق

(١) ملخصة عن مقالة « The Muslims in Poland By : L. Bohdanovicz .The gournal of The Royal asiatic Society. 1942 »

(٢) كانت امبراطورية جنكزخان تمتد من الصين إلى بحر الخزر قسمها بين أولاده الأربعة . وكان من نصيب جوشى البلاد الواقعة بين نهر ارتش والسواحل الجنوبية لبحر قزوين وكان إسم تلك البلاد عامة « القبشاق » ويطلق عليها « الرعيل الذهبى » Golden Horde نسبة إلى خيم عسكرها ذوات اللون الذهبى (حاشية فقرة ٤ ص ٣٩٤ القسم الثانى من الجزء الأول من كتاب السلوك نشر الدكتور زيادة)

ملجأ رحباً فى لتوانيا . والواقع أن لتوانيا قد جربت اخلاصهم وشدة مراسهم فى الحروب ضد الفرسان التيوتون وضد إمارة موسكو .

وقد عاش التتار فى هذا الاقليم ستمائة سنة ، إلا أنهم كونوا جماعة متميزة بتقاليدها وعاداتها من العنصر الذى عاشوا بين ظهرانيه . ورغم أنهم تزوجوا بمسيحيات نظرا لقلة النساء المسلمات اللاتى هاجرن معهم ، فإنهم احتفظوا بدينهم وتمسكوا به كما ظل طابعهم التركى التترى متميزا ظاهرا .

وقد تأثر التتار بالبيئة الجديدة التى استقروا بها . فبعضهم لم ترضه حياة الدعة والاستقرار ، فعادوا إلى مراكزهم الأولى فى القبشاق ، والبعض الآخر بقى ، وهؤلاء كانوا قد تأقلموا فى القرن الخامس عشر ونسوا لغتهم حوالى منتصف القرن السادس عشر. ويرجع ذلك إلى اضطرارهم إلى الزواج بنساء بولنديات ، فشب الأبناء على لغة أمهاتهم ، إذ أن الآباء كثيراً ما كانوا يتغيبون فى الحروب ، وفى هذا تفسير جزئى لاتخاذ المسلمين أسماء بولندية . ولكن برغم كل ذلك لم يضعف تمسكهم بدينهم — كما قلنا — كما أنهم حرصوا على الاتصال الدائم بالعالم الإسلامى وإن كان هذا الاتصال يتأثر بطبيعة الحال بالظروف السياسية . فمن وثيقة ترجع إلى القرن السادس عشر نعرف أنهم حجوا إلى مكة ، كما كانوا فى ذلك الوقت يتداولون فيما بينهم بنقود عربية لابد وأنهم جلبوها معهم بعد عودتهم من الحج . وكان من الطبيعى أن تفيد منهم الحكومة البولندية بأن تجعل منهم سفراءها لدى الدول الإسلامية ، وهذا مشاهد من إرسال مترجمين ومبعوثين سياسيين من بين التتار المسلمين خلال النصف الثانى من القرن الخامس عشر وطوال القرن السادس عشر . ثم من ناحية أخرى كان التتار يستعينون بأئمة وعلماء دينيين من تركيا والقرم ليشملوا بهم وظائفهم الدينية . ومن الطريف أن نذكر أنهم كانوا يستخدمون الحروف العربية فى مؤلفاتهم الدينية والعلمية المؤلفة باللغة الروسية أو البولندية .

وقد بلغ التتار البولنديون القمة فى تطورهم فى منتصف القرن السادس عشر الذى كان عصراً ذهبياً كذلك للتاريخ البولندى . ويمكن أن نقدر عددهم إذ ذاك بنحو مائة الف . وكان فى كل قرية يقطنها المسلمون مسجدها الخاص ، وفى بعض المدن هناك شوارع تترية إسلامية صرف ، بل وأحياء بأكلها خاصة بهم .

وهناك مرسوم ملكى مؤرخ بتاريخ ٢٠ يونية سنة ١٥٦٨ بين مراكزهم بالنسبة للعناصر الأخرى ، وهذا المرسوم يعين حقوق نبلاء المسلمين وامتيازاتهم ومساواتها بحقوق المسيحيين وامتيازاتهم . والواقع أنهم كانوا أقل فى بعض الحقوق من المسيحيين ، فليس لهم حق الانتخاب للمجمع البولندى ، وليس لهم أن يكونوا أعضاء فيه أو فى مجالس الولايات . وظلوا محرومين من هذا الحق حتى ظهور دوقية وارسو على يد نابليون سنة ١٨٠٧ . ولكن من ناحية أخرى يشتركون مع النبلاء المسيحيين فى الصفة المميزة لنبلاء العصور الوسطى ، وهى ملكية اقطاعات من الأرض كان يقطعها لهم الملك ، فكانوا يسمون أحيانا « تتار الملك » وهم إلى حد ما أتباع مباشرون له ، فهم لايستطيعون توارث ارضهم دون موافقة الملك ، إلا أن هذا الحق فى التوارث صار نهائياً فيما بعد . أما من الوجهة الاجتماعية فهم مقسمون الى طبقات ثلاث : الطبقة الأولى كبار الملاك ذوى الاقطاعيات الواسعة ، وهم ملزمون بالخدمة العسكرية وبتقديم جماعات من الفرسان كاملى العدة وقت الحرب ، وتضم هذه الطبقة الأمراء والأشراف . والطبقة الثانية الجند العاديون ولهم أراض تقل فى مساحتها عن أراضى الطبقة الأولى وهم على العموم يزرعون أرضهم بانفسهم . أما الطبقة الثالثة فلا يمتلك أفرادها نصابا معيناً من الأرض ، يشتغلون بالزراعة وأعمال النقل والبريد ، إلا أن فى إمكانهم الوصول إلى مركز محترم عن طريق الخدمة العسكرية . وكانت الطبقتان الأولى والثانية معفاتين من الضرائب ، ولكن بمضى الوقت أخذت الفوارق تتلاشى بين الطابقات .

[البقية فى العدد القادم]

مصطفى كمال عبد العليم

العصبية المفـــــرقة

للأســـتاذ محمود الشرقاوى

أبرزت الانتخابات البرلمانية التي جرت في الأسبوع الماضي ظاهرة جزع لها رجال السياسة كما جزع لها المفكرون على السواء

هـذه الظاهرة هي تحريك العنصرية الطائفية واستغلالها في الصراع الانتخابي بين المرشحين والناخبين .

ورجال السياسة والمفكرون من حقهم أن يجزعوا لبروز هذه الظاهرة التي من شأنها ـ لو أنها لم تتدارك ـ أن تضعف التماسك الشعبي بين أبناء الأمة وأن تعطل إلى حد كبير سيرها إلى أهدافها الوطنية ووصولها بعد ذلك إلى هذه الأهداف ، وأن تقلل من تقدير الأمم ذوات السيادة للوطن المصري وللوطنية المصرية ولقيمة الشعب ومكانته من الحضارة والثقافة وما يستتبعه ذلك من اعتراف هـذه الدول لمصر بحقها في الحياة الحرة وتمكينها مما تتطلبه من مركز حسن بين مجموعة الأمم المتحضرة ومكان ممتاز بين مجموعة الشعوب العربية بوجه خاص

ومن المقاييس الصادقة التي تقاس بها حضارة الأمم وثقافتها وحظ طبقاتها من التهـذيب مقياس التسامح الديني والطائفي . فكلما كانت الأمة أعرق حضارة وأعمق ثقافة وأرق تهذيباً ، كانت أبعد بطبقاتها وأفرادها عن التعصب الديني والعنصري ، ومما يتصل بأي نوع من أنواع التعصب للأقليم أو المهنة أو التعليم أو الثقافة . وكلما كانت الأمة أقرب إلى البدائية في حضارتها وثقافتها وتهذيب شعبها احتدّ بين طبقاتها وأفرادها التعصب وتعددت ألوانه ومظاهره .

وكذلك الأفراد يمكن أن يقاس تهذيبهم رفعة وخفضاً ورقة وغلظة ، وأن تقاس ثقافتهم تعمقاً وسطحية وجوهراً ومظهراً ، بمقياس بعدهم أو قربهم من التعصب لدينهم أو ذاتهم أو إقليمهم أو معهدهم التعليمي أو نوع ثقافتهم .

وهذه كلها بداهة أعتقد أن جمهوراً ممتاز الثقافة والفهم مثل قراء « الرسالة » لابد أن يعرفها ويسلم بها

وكما أبرزت الانتخابات البرلمانية الأخيرة هـذه الظاهرة المؤسفة من مظاهر التعصب الطائفي عند فريق من الناس فتداركها رجال السياسة والعقلاء من المفكرين ، أبرزت حوادث أخرى مثل إنصاف الطبقات والمتخرجين في الجامعات والمدارس ظاهرة أخرى لنوع آخر من التعصب للمهنة أو الوظيفـة أو المعهد أو الثقافة ، وكلها ألوان من التعصب هي كما قلنا تمس إلى حد كبير وحدة الأمة وتماسكها ، ويستطيع بعض الناس أن يجعل منها مقياساً لحضارتها وثقافة مجموعها وفهمه لقوّمات الأمم وتهذيب الأفراد .

وقد كان هـذا المظهر الأخير من مظاهر التعصب أكثر وضوحاً للمشتغلين بالصحافة والذين لهم وعي وحسن إدراك للتيارات الذهنية والتموجات النفسية والفكرية للمجتمع المصري . كما كان أبرز وأوضح لمن تولوا شؤون هـذا الأنصاف للطبقات والخريجين والحاصلين على مختلف الأجازات العلميـة والشهادات المدرسية وكم سمعنا وقرأنا لهؤلاء الذين تولوا هـذه الشؤون فأدركنا أن الأمر جدّ ، وأنه مما يستحق أن يشتغل به المفكرون والذين لهم غيرة على وحـدة الأمة الثقافية أو تماسكها الثقافي على الأقل .

وقد كان مما يهون ـ إلى حد ما ـ من شأن التعصب العنصري والطائفي أن فشوه قاصر على السواد وأبناء الشعب وأن الساسة والمفكرين يقضون على سمومه عند أول نهزة .

ولكن هـذا اللون الجديد من التعصب الثقافي ليس فاشياً بين السواد ولا بين أبناء الشعب ، ولكنه قائم محتدم بين الخاصة والمثقفين منه ، وأن أحداً لم يدرك خطره ولا شره فيعمل على خلاص هؤلاء المثقفين والخاصة منه ، ويعمل على أن يعود بهذه الشيع من المتخاصمين المتنابذين إلى ما يجب أن يكونوا عليه جميعاً من رفعة التهذيب ، ومن تعمق الثقافة وسعة الصدر والأدراك

وقد يكون للسواد والجهلة شيء من العـذر في أن يتعصبوا وأن يفترقوا وأن يخاصم بعضهم بعضاً فيما لا يجب أن يكون بينهم فيه خصام ، أوفيما يجب ألا يكون بينهم فيـه خصام ، وأن يعز بعضهم بعضاً أو يفاضل بعضهم بينه وبين بعض آخر فيما يجب ألا يكون بينهم فيه تفاضل ولا تمايز . ولكنه لا عذر للمثقفين ـ إذا أرادوا أن يكون لهم من هـذا الوصف نصيب ـ في أن يتنابذوا ولا يتعصب كل منهم وينحاز إلى جانب يراه أرفع شأناً وأميز ثقافة وأقوم في حياة الأمة وفي نفعها ، ليس لأنه كذلك في واقع الأمر ، ولكن لأنه هو من هذا الطريق .

محمود الشرقاوى

من كتاب الحياة

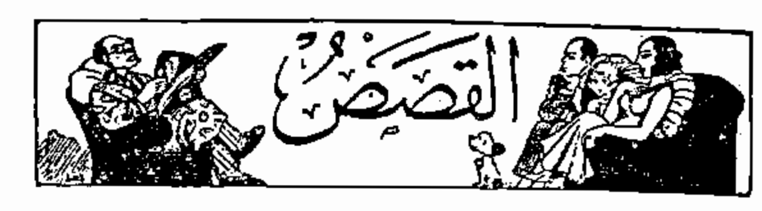
شريد . . .

للدكتور عزيز فهمى

مَرَّ بى كالخيالِ فى أسمالِه   واهياً كالخيالِ عندَ زوالِه
حائرَ الطَّرْفِ والخُطى كطريدٍ   ذاهلاً عن يمينه وشمالِه
راعشاً والسماء تُمطِرُ سَيْلاً   يُنذِرُ الرَّعْدُ صاخباً بانهيالِه
يَهرَأُ البَرْدُ ما يُواريه بُرْدٌ   وصَريرُ الرّياحِ دونَ سُعالِه
أيها العابرُ المُجِدُّ تمهَّلْ   أنتَ أحْرَى بأنْ ترِقَّ لحالِه!
صِحْتُ: ياطفلُ! لم يكَدْ ينتبِهْ لى
فتبِعْتُ الشريدَ والقلبُ والِه
حَيثُ أنْوَى بمَسْجِدٍ غيرِ ناءٍ   مُطرِقاً من حَيائه وسُؤالِه
والمُصلُّونَ مَنْ يُسَبِّحُ منهم   عازفٌ عن فضوله وابتذالِه
حَرَماً ياأخى وياصاحِ جَمْعاً..   أينَ مِنْ وقعِها ذليل مقالِه؟
لم يجدْ راحماً ولا مُستجيباً   بعْدَ ما بُحَّ صوتُه من كلالِه
فانثنى عائداً بخُفَّىْ حُنَيْنٍ   كاسفَ البالِ مُشفقاً من مآلِه
ثُمَّ ولّى إلى الكنيسةِ وجْهاً   واستجارَ الفتى بعيسى وآلِه
رَدَّهُ سادِنُ الكنيسةِ رَكْلاً
لَيْتَ من رَدَّهُ استحى من جلالِه!
ما على الدَّيْرِ لو أقامَ نهاراً
أو أطالَ الوقوفَ فوقَ احتمالِه؟
فمضى هائماً على غيرِ وجْهٍ
ليسَ يَلْوِى على هُدًى فى ضلالِه
وإذا بى أرى فتًى أرْيَحيّا   هَزَّهُ النُّبْلُ لا يَضِنُّ بمالِه
يَتْرُكُ الحانَ والنّدامى ويعدو   كالذى فَرَّ ناشِطاً من عِقالِه
صاحَ بالطِّفلِ يا بُنَىَّ انتظرنى   لحظة: فالطريق فى أوحالِه
وانتضَى ثوبَه وقالَ تَدَثَّرْ...   وأضافَ الجوادُ بعضَ نوالِه
فتأمَّلتُ ما رأيتُ مَلِيّا   ذلكَ الدرسُ فاعتبِرْ بمثالِه
أيهم عنـدَ ربِّه مُتَّقيه   ليتَ شعرى وأيهم غيرُ آلِه[1]؟
ليتهم إذْ صَغَوْا بخَدٍّ ومالوا   عَنْهُ أصْغَوا إليه عندَ ابتهالِه
مَنْ لهذا الشريدِ إنْ جَنَّهُ اللَّيْـ   ـلُ وأرْخَى عليهِ مِنْ أسدالِه؟
قابِعٌ عندَ دِمْنَةٍ تحتَ جُبٍّ   يحسَبُ الغولَ زاحفاً لاغتيالِه
قد تعرّى إلى الثرى غيرَ فَضْلٍ   مِنْ قميصٍ مُهَلْهَلٍ كرِمالِه
مَنْ لهـذا اليتيمِ أمسى وحيداً
مُشفِقاً من غولِ الدُّجى وخيالِه
بَيْنَ فَكَّيْنِ مِنْ طوًى وعَراءٍ   يَدْفَعُ الموتَ وهْوَ بينَ نِصالِه
عالِقٌ بالحياةِ يبغى خَلاصاً   ويَدُبُّ الفَناء فى أوصالِه
يَتلَوّى كما تلَوَّتْ قَطاةٌ   عَزَّها الفخُّ وهْىَ بينَ حِبالِه
أيُّها اللائمونَ عنه زكاةً   فَرَضَ اللهُ بَذْلَها لعِيالِه
لا تصوموا ولا تقيموا صلاةً   إنْ ضَنَنْتُمْ بها على أمثالِه
يعلم اللهُ ما غَنِمْتُم جزاءً   أيها المُمْعِنونَ فى إذلالِه
أحسنوا البِرَّ إن أردتم ثواباً   وتواصَوا بعِتْقِه وانتشالِه

عزيز فهمى

(١) الآله: العابد.



الجارم البرىء

للأستاذ حبيب الزحلاوى

توهمت أنى الشرقي المتأمرك الوحيد بين ركب الباخرة التي بعث بهـا الرئيس روزفلت إلى الشرق لتعود بالأمريكيين إلى ولاياتهم المتحدة قبل أن تقطع الطريق عليهم الحرب الوشيكة الوقوع بين أمريكا واليابان وحليفتيها . توهمت ذلك ، لأنى لم أرَ ساعة رفعت الباخرة مراسيها وأخذت تبتعد عن الميناء مودعاً واحداً يلوّح بمنديل ، ولا بصراً واحداً رنا لراكب واحد من ركاب هـذه الباخرة التي ستشق طريقها بين عجاجات الجحيم المستعرة بين أنصار الحرية وأشياع الفردية .

ألقيت بالنظرة الأخيرة على ميناء بيروت ، ولما اختلطت الرؤى ، وصرت لا أميّز بالعين المجردة إلا أشباح جبال لبنان الضاربة قممها فوق الغيوم دون أشجار الصنوبر الخالدة ، طفقت أرود الباخرة أتطلع إلى ركابها الأمريكيين .

إن الروح الجماعية أصيلة فى خلق الأمريكان، تستميلهم المغريات كالفرنسيين ، ويدفع بهم حب الاطلاع إلى معرفة ما خفى من الأمور ، وما استتر من الأشياء وخفايا الناس أيضا ، وهم لا يتورعون عن المراهنة على كل حدث أو خاطرة ، فهذه الخاصة هى التي حفزت أكثر الركب ، وقد تعارفوا وتآلفوا، إلى معرفة طوية رجل متأمرك آخر سـواى، نفور جالس فوق كرسى مستطيل من كراسى الباخرة لا يجيب عن سؤال راغب ، ولا يلتفت إلى طلب أى طالب ، سيدة كانت أم رجلا . وقد استمان هؤلاء الطُّلَعات بى، وكانت رغبتهم فى معرفة ازوراره مواطنى الشرقي تكاد تنقلب شهوة ملحاحاً أكثر لجاجة من حبه الرهان .

قالت لى فتاة رفافة البشرة : « أحسب صاحبك عاشقاً ، لأن الحزن يجلل نفسه بوشاح من اليأس ! ! وقالت سيدة فقدت حيلتهـا فى مغالطة نفسها فتركت نفسها لأقدار الزمن : « صاحبك هذا قوى الغرام وهذه حالة تنتاب الكهول حين يشعرون بالهرم » وقال شيخ : « قد يكون سبب حزنه عدم إتمامه بنـاء القصر الذى بناه فى قريته فتركه يعشش فيه الخفافيش والبوم وعاد إلى أمريكا يجمع الدولارات ليتم بناءه » ولـكنى فى بطنى » وهو يضحك « لكنه لولا تعود بطون الأمريكان تحملها لأفرغت ما فيها من كل منفذ . وقال آخر يتمهد الرصانة : « الجنسية الأمريكية للبنانيين حصانة تقى أطماعهم من طغيان إخوانهم الأقوياء » ، فقالت الفتاة الصبية مخاطبة هذا المعترض ، كنت دائماً يا عمي العزيز تكبر فى اللبنانيين مقدرتهم فى شق طريقهم للحياة برغم تحاملك عليهم . قلت وقد قطعت على هؤلاء النقادة حبل استرسالهم : « هـذا بحث فى خصال قوى سأحاسبكم عليه فى ظرف مناسب ، أما الآن وغايتكم معرفة صدوف مواطنى عنكم ، فأنى أتكفل بإشباع رغبتكم وإرضاء فضولكم .

البحر والوحدة أنجع دواء للشفاء من لوعة الحزن ، بل لا حرج على القائل : « إذا انطلق لسانى المحزون بالشكوى فقد زال نصف دائه ، وإذا لقيت شكواه قلباً واعيا انتقلت إليه» لقد استطعت بوسائلى الخاصة حل عقدة لسان هـذا الحزين وهو من مدينة فى لبنان اشتهر سكانها بالفطانة والذكاء ، وعرفوا بالصلابة والعناد والأريحية والشمم لتأصل صفات الحرية فيهم فقال لى :

أتعرف حى البرازيلى فى زحلة ؟

قلت : أعرف الأبنية الجميلة المزخرفة القائمة على ضفاف البردونى !

قال : يوجد فى عاصمة البرازيل حى يشبهه فى هندسة البناء يدعى الحى الزحلى .

قلت : ما علاقة هذا بذاك ؟

قال : لست أبالغ إذا قلت لك إن جل طلاب الكلية الشرقية فى تلك المدينة كانوا يتوجهون وجهة الهجرة إلى البرازيل ، ولم يكن يجول فى خواطرهم إلا نيـل شهادة الدراسة والرحيل إلى البرازيل واللحاق بأخوان سبقوهم إليها ، وهمهم العمل والكسب يبنون بناية جديدة فى الحى الزحلى فى البرازيل ثم العودة إلى زحلة يشيدون قصراً فخماً فى الحى البرازيلى الفخم :

قلت : أعرف روح المغامرة فى الزحليين دون سواهم من المهاجرين من لبنان .

قال : ما كدت أفوز بالشهادة المدرسية حتى رغبت إلى والدى أن يأذنا لى بالسفر إلى البرازيل وقد وافقا مكرهين .

كانت الباخرة التى أقلتنى آنذاك تعج بمئات من المهاجرين أمثالى ، وكانت مناديل المودعين ترفرف كأجنحة الحمام ، والعيون ترنو بين ساهمة ودامعة ، والقلوب تخفق خفقان حنان وحب ورجاء .

كنت مشرد اللب ساعتذاك، أنظر إلى أمى وأبى بعين الولد البار ، وانظر إلى فتاة كانت بجانبهما بعين قلبي . لم تكن الفتاة غريبة عنى، بل كانت من أقارب الأبعدين، وقد جاءت من « كفر شيما » خصيصا لوداعى . كانت معرفتى بها بسيطة محدودة ، أما فى ذلك الموقف ، موقف الوداع ، فقد انفتحت لها جوارحى فأحسست فجاءة بأن كل ذرة من كيانى الذاتى تدعونى إليها، وأنها هي هى المتممة لتكامل وجودى فى الحياة ، فوثبت على غير وعى وثبة قلب محفوز ، وأخذت أدفع الناس حتى شققت طريقى إلى سلم الباخرة ، فهرولت نحو والدى ، فأخذت يد الفتاة بيدى اليمنى ويد أبى بيدى اليسرى ، وقلت لوالدى هاك « أنيسة » خطيبتى بل زوجتى بالروح ، احتفظا يا والدى بها . لن يطول غيابى . سأقتحم البحر، وأشق المنجم حتى أصل إلى الذهب أقتلعه من أصوله فأقدمه عربونا للزواج من حبيبتى « أنيسه » هذه . وقبلت جبينها قبلة خاطفة فيها كل الدوافع والبواعث والحوافز .

كان يتخلل حديثنا فترات يتقطع فيها الحديث لإشعال لفافة أو مسح جبين للاستذكار ، أو مشاهدة دارعة كقلعة تترنح، أو غواصة تطفو وتغوص ، أو أسراب من طائرات تهبط وترتفع واحدة منها للاستكشاف

قال محدثى : غمر البحر معالم الأرض ، ولم تعد العين ترى إلا قبة مكورة فوق وجه الماء ، وكنت أرى بعين البصيرة وجه « أنيسة » الصبوح ، وعينيها الصافيتين الناعستين تدفعانني دفعاً إلى الأرض الجديدة التى سأنبش تربها كالخلد وأقضم خيراتها كالجراد

بدت منابت الأمل فى نفسى تمتد سوقها ، وتبرز براعمها ، وتورق وتزهر . وأخذ خيال السعادة يحوطنى بشملة من فرح ترينى وجه المستقبل نضراً بساما ، فوددت لو أسنحت الباخرة أن تثب فوق اليم فتجتاز المحيط ساخرة من أنوائه وعواصفه فأصل طفرة إلى حلبة الجهاد والعمل . ثم صمت هنيهة وقال :

لقَّنني مواطني فى البرازيل بضع كلمات من لغة البلاد ، وبعد أيام معدودات ملأت أكياسى بأنواع من جوارب ومناديل وأدوات زينة أعطانيها تاجر سورى ، أطوف بها شوارع عاصمة البرازيل أقرع أبواب المنازل أعرض على رباتها بضاعتى . كنت أحس الشفقة بى والضحك من رطانتى واغتفار جرأتى وفضولى

كان تقبل البرازيليين إياى على هذا النحو يحز فى كبريائى فانتقلت إلى الضاحية . جبت الريف وتوغلت فى القرى النائية أسعى على أقدامى ، وكلما نقصت بضاعتى كنت أرسل فى طلب سواها من عميلى الذى استأمننى ولا ضامن لى عنده سوى أنى مواطنه ! ؟

لله در الأمريكانى يا صديق من عطوف شفوق ! ولكنه طلعة مغامر مراهن تستضيفه فيطعمك ويؤويك ، لا عن كرم ولابدوات خاطر ، بل عن فضول حافز ملح إلى الاستطلاع والمعرفة

(البقية فى العدد القادم) حبيب الزحلاوى